سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[ دفاتر تفكيك خطاب التطرف ]

17

# العمل التزكوي ونقض مقولات التطرف

د. عبد الصمد غازي

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

# العمل التزكوي
## ونقض مقولات التطرف

## سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

## - دفاتر تفكيك خطاب التطرف -

المشرف العام: أ. د. أحمد عبادي / رئيس التحرير: د. محمد المنتار

الإخراج الفني: يونس عبدوس

الطبع: مطبعة المعارف الجديدة. الرباط / الطبعة الأولى: (1440هـ/2018م)

الإيداع القانوني: 2018MO5745 / ردمك: 978-9954-600-78-8

**تطلب منشوراتنا من:**

• وحدة النشر والتوزيع وتنظيم المعارض

الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية الرباط.

الهاتف والفاكس: 0537.70.15.85

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• المعرض الدائم لإصدارات الرابطة المحمدية للعلماء

شارع فيكتور هيكو رقم 53 مكرر، الأحباس، الدار البيضاء.

الهاتف: 0522.44.86.57 الفاكس: 22.54.20.51 5 (212+)

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط

البريد الإلكتروني: Derelamane@menara.ma

هاتف وفاكس: 37.20.00.55 5 37.72.32.76/ 5 (212+)

كل الحقوق محفوظة

Tous droits réservés

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

www.arrabita.ma

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو اختصار أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[ دفاتر تفكيك خطاب التطرف ]

17

# العمل التزكوي
## ونقض مقولات التطرف

د. عبد الصمد غازي

## مقدمة:

يتميز التدين الإسلامي بطبيعته العملية التي لا تقف عند حدود المقولات والتمثلات النظرية، بل إنه منظومة متكاملة العناصر لا ينفك فيها المعتقد عن السلوك، ومن ثم كان العمل التزكوي ركنا مكينا في العمل الديني، أفرز مناهج للتدرج في منازل السلوك والتربية على التحلي بالقيم البانية ظاهرا وباطنا، وجعل من فحص النيات قبل الدخول في كل عمل شرطا للتقويم والتجويد والإحسان، مفرزا منهج المجاهدة للنفوس باعتبارها عملا مواكبا لكل الأعمال ومصلحا لأصولها ومآلاتها، بحيث يقي من «اختراقات» حب الرياسة وشهوة التسلط وطلب الحظوظ التي تدب إلى صاحب العمل من حيث لا يشعر.

يتطلب مثل هذا العمل يقظة دائمة تقي من مختلف الغفلات التي تتلبس بلبوس الدين وهو منها براء، مما بتنا نراه من أنواع التنطع والتطاول على الشرع جهلا وغلوا وانتحالا، في ذهول تام عن مراتب الدين التي أجمعت الأمة على جماليتها النموذجية التي ربطت التخلق بالتزكية، مما له أثر بالغ في بناء العلم بالدين نظرا واستبصارا، وتأويلا واستنباطا، واجتهادا مواكبا لمختلف سياقات التنزيل لمقاصد الدين.

إن العمل التزكوي شرط ضروري في تصحيح العمل بالدين فهما وتطبيقا، حيث أفرز مناهج وآليات تمكن من التمنيع أصلا من مقولات التطرف قبل نقضها، فشتان بين من همه اتهام نفسه، ومن هو مشتغل بعيوب غيره، في ادعاء للكمال

وفصل للمقال وإصدار وختم للأحكام على أحوال العباد ومصائرهم، فالعمل التزكوي منظومة قيمية لا نجد في مخرجاته إلا التقويم البناء، والرؤية الجمالية الواسعة، والفقه المواكب لمتغيرات السياق، فهو بمثابة الشجرة المتجذرة عروقها في تربة النص الشرعي، والمتعالية أغصانها لتعانق أشواق الروح، إذ تسقى بماء الفهم والعقل عن الله، وهو ما يستوجب العناية النظرية والعملية بهذا المكون الجوهري من بنائنا الديني الإسلامي الحنيف، بعد عقود من الهدم، مما كان سببا في تسلل جرثومة التكفير واستباحة الدماء إلى أيض الأمة لواذا، وتفتيت بنيات للتأطير الروحي والديني ترك الباب مشرعا أمام دعاوى التطرف والإرهاب.

## التزكية جهاد للنفس وعمل دائم:

تزكية النفس فرض عين على كل مكلف، فهو اشتغال يتميز بالاستمرار والديمومة مادام نَفَس الإنسان، فهي عمل جوهري به يتقوم الفعل الإنساني، ما ظهر منه وما بطن، وينمو ويتجدد، ولذلك ورد ذكرها بصيغة الفعل المضارع ﴿ويزكيهم﴾ في كثير من المواضع من كتاب الله العزيز.

أشار إلى هذا المعنى اللطيف أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 150]، مبينا أوصاف ووظائف رسول الله ﷺ، الثابتة منها والمتجددة، بقوله: «ووصفه بأوصاف كلها معجز لهم، وهي كونه منهم، وتالياً عليهم آيات الله، ومُزكّياً لهم، ومعلماً لهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون؛ وقدم كونه منهم، أي يعرفونه شخصاً ونسباً ومولداً ومنشأً، لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله؛ وأتى ثانياً بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى، لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه، الباقية إلى الأبد، وأضاف الآيات إليه تعالى، لأنها كلامه سبحانه وتعالى، ومن تلاوته تستفاد العبادات ومجامع الأخلاق الشريفة، وتنبع العلوم؛ وأتى ثالثاً بصفة التزكية، وهي التطهير من أنجاس الضلال، لأن ذلك ناشئ عن إظهار المعجز لمن أراد الله تعالى توفيقه وقبوله للحق؛ وأتى رابعاً بصفة تعليم الكتاب والحكمة، لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان، باتباع النبي ﷺ، فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله تعالى، وما اقتضته الحكمة الإلهية؛ وأتى بهذه الصفات فعلاً مضارعاً ليدل بذلك

على التجدد، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائماً؛ وأما الصفة الأولى، وهي كونه منهم، فليست بمتجددة، بل هو وصف ثابت له»[1].

تؤطر التزكية الفعل منذ بدايات تبرعمه في عمق الوجدان، وميلاده في عالم النيات، قال رسول الله ﷺ **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»**[2]، فالنية فعل قلبي، بحيث إنها منطلق الفحص والتمحيص للعزم على فعل كل ماهو سَني، وترك غيره مما هو دَني، يقول المحاسبي «فافحص عن النية، واعرف الإرادة، فإن المجازاة بالنية»[3]، فما يتجلى من فعل في عالم المعاملات قد تجاوز حاجز الرقابة، ومر عبر المصفاة الضرورية التي يمكن اعتبارها أرقى الصيغ والمناهج الوقائية والاستباقية السلوكية، فالعلم والعمل محفوفان بمخاطر الكبر والرياء وحبي الرياسة والظهور، ومن ثم يمكن فهم الحكمة الإلهية من ورود العلم بعد التزكية ومتصلا بها في قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: 2].

عرف سلم الأولويات في العمل الديني، تشوهات من جراء التحريفات وأنواع الغلو التي طرأت على التصور والحركة الإسلاميين بفعل أسباب لا مجال لذكرها في هذا المقام، فحسبنا الإشارة إلى أن الجهاد المرتبط بالدفع للعدو، فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخر، وهو

(1) البحر المحيط في التفسير. لأبي حيان التوحيدي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق، د. زكريا عبد المجيد النوقي- د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، ط1/1993، ج1، ص، 618.

(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

(3) رسالة المسترشدين، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ط2، ص45.

عمل محكوم بشروطه الشرعية المؤطرة له في الزمان والمكان، يقول تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 76]، فقد «أمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله لا لنفسه، ولا بنفسه، ... فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾»[4].

إن مصداقية هذا العمل برمته، وقبوله من لدنه تعالى، مرتبطان أصلا بالنوايا المكنونة والثاوية وراءه، والمحركات الفعلية له، فالأصل هو جهاد العبد نفسه، فالمعركة داخلية، قبل أن تكون مع عدو خارجي، والذي أصبح مع انتحال المبطلين هو الأصل الذي ينبني عليه جماع أمر الدين، في ذهول عن أسرار الشريعة ومقاصدها ووسائلها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 216]، «فكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت، هجرة إلى الله عزوجل بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة، وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره، وخبره: «فمن كانت هجرته إلى الله

(4) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق، الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1998، ج3، ص7-8.

ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»؛ وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد»[1].

إن مجاهدة النفس وتزكيتها، بناء أخلاقي تتكامل فيه الأبعاد الإيمانية، بالأطر القيمية التي تقي العمل الديني برمته من آفات هوى النفوس، ومختلف التلبيسات المنحرفة والدعاوى الغالية باسم الدين، وكما قال النبي ﷺ، «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[2]، وقد شرحه ابن رجب باعتباره، نوعا ثانيا من الجهاد، حيث قال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو؟: «ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها». «وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة»[3] فعن أبي أمامة قال: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغي به وجهه**». [رواه أحمد والنسائي]، وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك**

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد، ص11.

(2) أخرجه أحمد21/6 من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ، في حجة الوداع: « ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» وسنده جيد، وصححه ابن حبان (25) والحاكم 11/1، ووافقه الذهبي.

(3) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، أبو الفرج ابن رجب، تحقيق، ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، ط5، 1999، ص، 403.

**حتى استشهدت، قال: كذبت ولكن قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقى في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار»** [رواه أحمد ومسلم].

إن التزكية فقه في الدين بمعناه الشامل، وليس بما جرى به الاستعمال الاختزالي له، في مجرد الأحكام الشرعية التكليفية. فتم تضييق واسع، وهو البين من وظائف النبوة بنص القرآن حيث تتجلى مركزيتها الوظيفية في الآي بكل من سورة آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [164] وسورة الجمعة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [2] والبقرة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [128]؛ وبذلك «كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف

منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له، متسلط عليه، لم يجاهده، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه، حتى يجاهد نفسه على الخروج»[1]؛ فالمركزية الوظيفية للتزكية ليست بحاجة إلى مزيد برهان، فيكفي ان لفظ التزكية ورد في التنزيل الحكيم، بعد أحد عشر قسما، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)﴾ [سورة الشمس].

إن القصد من التزكية هو التخلق بالقرآن الكريم والتحقق به، تأسيا بالمُزَكّي الأعظم رسول الله ﷺ، الذي زكاه الحق عز وجل بقوله جل من قائل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وشهدت به عائشة رضي الله عنها، عندما سُئلَت عن خلقه عليه أفضل الصلوات وأزكاها فقالت: «كان خُلُقُه القرآن» [رواه مسلم].

ولفظ التزكية يحمل معاني التطهير، أو التصدق وإخراج الزكاة، أو الزيادة والتكاثر والتنامي. وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9]، وقال جل من قائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 104]، وقد ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ ما رواه الطبراني في «المعجم الصغير» وغيره عن عبد الله بن معاوية الغاضِري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ**

(1) زاد المعاد، ص6.

**وَلَا يُعْطِي الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَا الشَّرَطَ اللَّئِيمَةَ وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ وَزَكَّى نَفْسَهُ»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»**[2].

فإذا كانت التزكية بمدلولها التطهيري في تجليه المعنوي، أولا، والذي يدل على تخليص النفس وتصفيتها من الكدورات ونوازع الشرور، والمادي، ثانيا، بأداء فريضة الزكاة، فإنها بذلك تكون سببا لتنمية القيم والخيرات الحسية والمعنوية؛ و خلاف ذلك التدسية، فهي نقيضها وهي التحقير والخفاء، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 10]، قال الزجاج: «خابت نفس دساها الله، ومعنى « دساها» جعلها قليلة خسيسة، والأصل دسَّسَها، ولكن الحروف إذا اجتمعت من لفظ واحد، أبدل من أحدها ياء...»[3]، وقال الفراء: «وقد خاب من دسَّى نفسه، فأخملها بترك الصدقة والطاعة، ونرى -والله أعلم- أن دساها، من دسَّسْت، بدلت بعض سيناتها ياء، ...»[4]، قال ابن تيمية: «وجهاد النفس، أعمال تعملها النفس المزكاة، فتزكو النفس بذلك، بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل»[5]، وزَكَّى المرء نَفْسَهُ، مَدَحَها وَنَسَبَها إلَى الصلاح الآية ﴿فَلاَ تُزَكُّوا

(2) أخرجه أبو داود (103/2، رقم 1582)، وابن سعد (421/7)، والحكيم الترمذى (302/2)، والبيهقى (95/4، رقم 7067). وأخرجه أيضًا ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (300/2، رقم 1062).

(3) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تحقيق، عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، 1988، ج5، ص332.

(4) معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، ط3، 1983، ج3، ص267.

(5) تزكية النفس، ابن تيمية، دراسة وتحقيق، محمد بن سعيد القحطاني، ط1، دار المسلم للنشر والتوزيع، 1994هـ، ص46.

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: 31]، وهذان المعنيان من المهلكات المنهي عنهما بصريح الكتاب العزيز. فالسلامة من جميع هذه الآفات فضل من الله ورحمة من لدنه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

فالإنسان وحدة متكاملة لا تتجزأ، إذ لا انفصال بين البدن والقلب والروح، يقول تعالى، مبرزا النفخة الروحية والجعل للسمع والبصر والفؤاد، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 8]، وقال عز من قائل ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، وقال تعالى مبينا وظائف الأعضاء وأعمالها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، وغير ذلك من الآيات البينات التي تبرز خصوصية المدارك المعرفية والسلوكية التي لا ينفك فيها العلم عن العمل والتزكية، فقد ورد القلب وما اشتق منه في القرآن الكريم قرابة خمسين ومائة مرة، كما ورد في أحاديث النبي ﷺ، قرابة أربعمائة مرة.[1] فالإنسان تركيب رباني، حيث إن القلب خلق للعلم بالأشياء، كما العين خلقت لرؤيتها، والأذن للسمع بها، فالقلب رأس الأعضاء وسيدها «إن

(1) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي لفظ (قلب)، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث لمجموعة من المستشرقين لفظ (قلب).

**في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[2].

لقد كان أبو طالب المكي من كبار الرواد في علوم التزكية، وطب القلوب، وعمل على وضع تحليل نفسي وروحي تربوي يتتبع فيه بشكل دقيق وفريد دينامية السلوك وتطوره، بل يعتبر اجتهاده التنظيري لقيمة العمل التزكوي معتمد كثير من أرباب التربية والسلوك، بل إن فصولا بتمامها من كتابه قوت القلوب تجدها مبثوثة في موسوعة إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

يقول في "قوت القلوب" واصفا بمصطلحات في غاية الدقة تطور العمل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل على حد تعبير الفلاسفة، «فصورة المحاسبة أن يقف العبد وقفة عند ظهور الهمة، وابتداء الحركة، ثم يميز الخاطر وهو حركة القلب، والاضطراب وهو تصرف الجسم، فإن كان ما خطر به الخاطر من الهمة التي تقتضي نية، أو عقداً، أو عزماً، أو فعلاً، أو سعياً، إن كان لله عزوجلّ وبه وفيه، أمضاه وسارع في تنفيذه، وإن كان لعاجل دنيا، أو عارض هوى، أو لهو وغفلة سرى بطبع البشرية ووصف الجبلية، نفاه وسارع في نفيه، ولم يمكن الخاطر من قلبه بالإصغاء إليه، والمحادثة له، فيولد فيه هماً رديا يصعب عليه بعد حين طرحه، وينتج منه فكراً دنيا يعسر بعد وقت نفيه، ويؤثر ذلك في قلبه أثراً يستبين له بعد حين فعله»[3].

(2) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه 1/ 28 (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات 3/ 1219 (1599).

(3) أنظر قوت القلوب في معاملة المحبوب، أبي طال المكي، تحقيق، محمود إبراهيم محمد الرضواني، مكتبة دار التراث، دار العلوم-جامعة القاهرة، ط1، 2001، ج1، ص230-231.

ومن ثم اعتبر صلاح القلب أمرا جوهريا في العمل التزكوي برمته وعليه مدار العلم والعمل الإسلاميين، حيث إننا نقف في تراثنا الأخلاقي على مقابلة بديعة بين العاقل والغافل، فهما قد يشتركان في العلم بالشيء، ولكنهما يختلفان من حيث العمل الصالح الذي يصدق عمل القلب، «فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء، ولا أقول أن يعلمها فقط، فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلا له، بل غافلا عنه ملغيا له، والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويثبته في قلبه، فيكون وقت الحاجة إليه غنيا فيطابق عمله قوله، وباطنه ظاهره، ...»[1].

لقد اشتهر علم التصوف عند السلف والخلف بالعناية بالمقومات التزكوية التي تعتبر من لبنات إقامة الدين، وهو ما تجلى في السير والنماذج الدينية والأخلاقية التي يحفل بها تاريخ الإسلام، والتي استطاعت أن توصل الهدي القرآني والنبوي إلى مختلف البقاع بالسلم والأمن والمحبة وحسن المعاملة، بعيدا عن الإكراه والتنطع والغلو والتطرف، واجتهادا منها في المطابقة مع روح الشريعة، عبر مناهج محاسبة النفس والإخلاص لله تعالى والتعامل بالرحمة واليسر والتبشير والتدرج واجتناب الاعتساف والوصم والتمييز والكراهية والعنف،

ولذلك وجب التمييز عند تدارس العمل التزكوي أو السلوك الأخلاقي أو التصوف الانطلاق من مقدمتين أساسيتين:

(1) رسالة في القلب، ابن تيمية، تحقيق، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، ط1، 1990، ص17.

## أولا. النظر في مضمون التجربة الصوفية باعتبارها تحققا أخلاقيا

إن التزكية وأدب النفس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل. وهي أبرز غايات التصوف. حقيقة شرعية قررها الكتاب والسنة، وطبّقها الرسول ﷺ، وصحابته والتابعون ومن سار سيرهم، وكان لذلك كله أثره في الممارسة الإسلامية في سائر أبعادها عبر أصل التزكية؛ ذلك أن الأخلاق التي هي أبرز سمات هذا التراث الصوفي سمت أصيل للإسلام ذاته، إذ من المقرر أن المضمون الأخلاقي للتصوف مستفاد من أصول الدين الإسلامي الذي نشأ في كنفه، بل إن البعثة المحمدية تتلخص مقاصدها الأصلية في ترسيخ مكارم الأخلاق كما هو لائح من قول الرسول الكريم ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**[2]، كما تتلخص مكارم الرسول ﷺ وكمالاته في كونه على خلق عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، أي على دين عظيم أي الإسلام حسب بعض التفاسير.

يقول أبو الحسن الندوي مقررا هذا المعنى: «و(لو) رجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ «التزكية»، ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة

(2) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة، أنظر: مسند الإمام أحمد، حديث رقم: 8952، 512/14.

الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم»[1].

وعلى مقتضى هذا الوعي بالمقاصد الأخلاقية للتجربة الصوفية، تقررت مجمل تعاريف العلماء للعلم الصوفي، وتواطأت على نعته بكونه العلم الذي يعنى بمكارم الأخلاق، حيث «اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق، (...) إن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب؛ ولذا سُمّي بعلم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سموه علم الظاهر»[2]. كما يقرر الكتاني الحقيقة الأخلاقية للتصوف بأوضح عبارة بقوله: «التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف»[3].

إن تحديد الهدف والدخول إلى المضمون دون الوقوف عند الأشكال والأعراض، يعد ذا فائدة منهجية إجرائية عظيمة تتجلى أساسا في كون الانضباط به والالتزام به يفيد في تحقيق الالتقاء والتوافق على الحقيقة الشرعية للتصوف التي «هي الكيفيات الباطنية التي تصاحب الأعمال والهيئات عند أدائها، وهي أخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح

(1) ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، دار القلم. دمشق، الدار الشامية. بيروت، ط.1، 1421 هـ. 2000م، ص:14-15.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط.2، 1973م، 2/316. 371.

(3) نفسه، 2/307.

من الجسد، والباطن من الظاهر وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام، تجعل منها علما مستقلا وفقها منفردا»[4].

وباعتبار هذا الملحظ يجد الدارس عبارات العلماء على اختلاف مشاربهم، متقاربة بل متواطئة على هذا المضمون المقوم لحقيقة التصوف، فقد قرر هذه الحقيقة ابن القيم، وابن خلدون، والقشيري، وغيرهم، مشيرين جميعًا إلى أن إطلاق لفظ الزهاد أو العباد أو الصوفية، أمر له ظروفه التاريخية وجودًا ودلالة، وذلك لا يقدح في حقيقة المسمى.

إن النظر إلى التصوف كحقيقة مضمونية تضرب جذورها في مصادر الإسلام الأصلية، وتتحدد معالمها في سلوك الرسول ﷺ، يوفر على الباحث الانشغال المتكلف بالخلاف حول أصل التسمية، هل هو الصوف أو الصفة أو الصفاء أو صوفيا؟، وغير ذلك من القضايا المتكلفة التي تحجب الباحث عن تبين الحقائق الجوهرية للتصوف، وتحول دون تمثلها سلوكيا في حياة الفرد والمجتمع وهذا ما أشار إليه الندوي بقوله: «ليس لنا الآن إلا أن نقرر الحقيقة، ونتحرر من القيود والمصطلحات، ومن النزعات والتعصبات، ولا نفرّ من حقيقة دينية يقررها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنة، وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد لأجل مصطلح مُحدَث أو اسم طارئ دخيل»[5].

ومن ثم وجب الوقوف عند المنقول دون المقول الذي يحجب عن طبيعة المضمون الأخلاقي للتصوف، إذ من ينشد تحقيق الإفادة من

(4) ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، ص: 16- 17.

(5) نفسه، ص:19.

دره وذخائره، فإن الأمانة العلمية تقتضي منه التفريق بين أقوال الصوفية وفهوم مؤرخي الفكر وكُتّاب الطبقات لأقوال الصوفية وأفعالهم، إذ لا بد من التمييز بين هذين المستويين في التعامل مع المتن الصوفي. فكتب الطبقات مثلا غالبا ما تكتب في وقت متأخر عن حياة المترجم لهم، كما يلاحظ عليها تأثرها بالتلوينات المذهبية والميولات الفكرانية لأصحابها، وعدم أخذ ذلك في الاعتبار يؤدي إلى عدم تبين حقيقة أقوال الصوفية، والخلط بينها وبين أنظار ورؤى المؤرخين لهم.

وهذا أمر لا يختص به التصوف وحده، بل هو شامل لسائر الروايات على اختلاف موضوعاتها وهذا ما عناه ابن تيمية بقوله: «وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين وغيرهم، يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرون معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله. ويوجد أحياناً عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير»[1].

ومن الأمثلة الدالة على هذا الملحظ مسألتان:

**1. مسألة الصفة وربط التصوف بصفات أهلها** حيث ذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار الصوفية ورثة أهل الصفة في أحوالهم وأوصافهم، حيث قال الكلاباذي: «وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفّة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ»[2].

(1) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 43/11.

(2) التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، ضبط وتعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط.1، 1413هـ. 1993م، ص:10.

كما نجد هذا الربط بين أهل الصفة والصوفية محددا عند الطوسي وأبي طالب المكي وغيرهما، بل تابع هؤلاء المؤرخين الدارسون المعاصرون كمحمد الجليند ومحمد مصطفى حلمي الذي رأى في سيرة أهل الصفة بذرة التصوف الأولى فقال: «ونحن لا نجد بذور هذه الحياة الروحية مغروسة في قلب النبي ﷺ وقلوب صحابته من الخلفاء الأربعة فحسب، وإنما نحن واجدوها أيضًا حية نامية في قلوب كثير من الصحابة غير الخلفاء، ويكفي أن نذكر هنا أهل الصفة، وما كان لهم من أثر قوي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية عامة، وفي تاريخ التصوف الإسلامي خاصة»[3].

إلا أن هذا الربط الذي جرى على لسان بعض المؤرخين القدامى وتابعهم عليه بعض الدارسين المحدثين لم يؤخذ مأخذ التسليم بل كان محل مساءلة واستشكال خاصة لدى ابن تيمية الذي لم ير لأهل الصفة أي مزية دينية ولا علمية على غيرهم، «بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة، (...) وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصفة، فكان ينزلها مثل هؤلاء، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من نزل بالصفة ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة وغيره، (...) وقد روي أنه كان غلام للمغيرة بن شعبة وأن النبي ﷺ قال: هذا واحد من (السبعة)، وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية»[4].

(3) الحياة الروحية في الإسلام، محمد مصطفى حلمي، الهيأة العلمية للكتاب، 1984م، ص:28.

(4) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 11/166-167.

والحاصل أن الربط المذكور لا صلة له بحقيقة التصوف وإنما هو من اصطناع أهل التاريخ.

**2. مسألة مبدأ التصوف:**

لقد ذهب بعض المؤرخين إلى ما يفيد أن بداية التصوف كانت على يد علي بن الحسين زين العابدين، فالكلاباذي مثلا يقول في معرض حديثه عن رجال الصوفية «ممن نطق بعلومهم، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصحابة رضوان الله عليهم، علي بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن علي الباقر، وابنه جعفر بن محمد الصادق»[1].

وهناك من المؤرخين من وصل بداية التصوف بسيرة الحسن البصري وعلمه والذي ورث علم التصوف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ وراثة لا كسبا، بل إن البعض جعل مستندهم في الخرقة الصوفية أن عليًا ألبسها الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك إلى الجنيد.

والمتلخص من هذين المسألتين: أي الربط بأهل الصفة والبحث عن مبدأ التصوف من خلال سيرة السلف، أن فيها توجيها واضحا لتاريخ التصوف، وهو توجيه يظل محكوما باعتبارات لا تعكس حقيقة التصوف ولا تفيد في استكناه ماهيته وتحقيق مادته المعرفية والسلوكية، الأمر الذي يفرض منهجيا ضرورة التمييز بين القول الصوفي والمقول التاريخي.

---

(1) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص:21- 22.

## ثانيا. التمييز بين ما يقتضيه الحال وما يقتضيه المقام من أحكام

### 1. تسليم الحال:

لا شك أن الصوفية أصحاب أحوال ومواجيد يختصون بها، مثلما أنهم أصحاب صحو وفكر، يشتركون فيه مع سائر الناس، والمنهج السليم يقتضي التمييز في أقوالهم بين ما يصدر عنهم في حال التلبس بالأحوال، وما يصدر عنهم حال الصحو، وعدم الأخذ بهذا التمييز أدى بالناس إلى التعسف في الحكم عليهم، فالبعض حين رأى من أحوالهم ما يخالف ظاهر الشرع حكم عليهم بالكفر والفسوق والعصيان جملة ودون تفصيل، وهناك من امتدح ذلك بإطلاق دون تبين، ولقد أوضح ابن تيمية الضابط الذي ينبغي التقيد به في التعامل مع الأحوال بقوله: «وقد يغلو كل واحد من هذين حتى يخرج بالأول إنكاره إلى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد، متبعًا لظاهر من أدلة الشريعة. ويخرج بالثاني «إقراره» إلى الإقرار بما يخالف دين الإسلام مما يعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بخلافه اتباعًا في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر، (...) والأول كثيرًا ما يقع في ذوي العلم لكن مقرونًا بقسوة وهوى. والثاني كثيرًا ما يقع في ذوي الرحمة لكن مقرونًا بضلالة وجهل، (...) والعدل في هذا الباب قولاً وفعلاً أن تسليم الحال له معنيان:

**أحدهما:** رفع اللوم عنه بحيث لا يكون مذمومًا ولا مأثوما. والثاني: تصويبه على ما فعل بحيث يكون محمودًا مأجورًا، فالأول عدم الذم والعقاب، والثاني وجود الحمد والثواب، الأول عدم سخط الله وعقابه، والثاني وجود رضاه وثوابه؛ ولهذا تجد المنكرين غالبًا في إثبات السخط والذم والعقاب، والمقرين في إثبات الرضا والحمد والثواب، وكلاهما قد

يكون مخطئًا، ويكون الصواب في أمر ثالث وسط، وهو أنه لا حمد ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب»[1].

كما يقرر ابن تيمية في رسالة الصوفية والفقراء، أن الإنصاف يقتضي النظر في زوال العقل والبحث عن سببه، فإن كان بسبب غير محرم، وكان سكره نتيجة حالة من الحب والوجد والوله استغرقته فأسكرت عقله، كان في حاله هذه معذورًا، وإلا فالأمر بخلاف ذلك، يقول ابن تيمية: «والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبًا على أمره لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه؛ ولهذا لما سُئل الإمام عن هذا قال: قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان، فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه»[2].

بل نجده يقرر استنادا إلى قاعدة الإنصاف ضرورة التمييز بين السكر الطبيعي والسكر المتكلف، وأن على المرء في حال التباس أمر التمييز عليه أن يلزم حمى التوقف في الحكم، وعدم القطع في القضية، قال مقررا هذه القاعدة: إذا شك الإنسان في حال أحدهم هل هو سكر طبيعي أو متكلف كان عليه أن يتوقف في الحكم، فلأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة، شريطة أن ينبه أن هذا الذي وقع لا يقتدى به إذ هو مخالف للشرع، وإن كان لصاحبه عذره.[3]

(1) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 360/10، وص 378-379.

(2) نفسه، 8/11.

(3) نفسه، 383/10-385.

## 2. الصحو واليقظة:

أما ما يصدر عن الصوفي حال صحوه أو يقظته، فيقتضي التعاملُ معه عَرضَه على موازين الشرع قصد تبين الموافقة أو المخالفة، وتعد مسألة التقيد بضوابط الشرع عند الصوفية أمرا مسلما، ما فتئ شيوخ التصوف ينبهون عليه ويشددون عليه، من ذلك قول ابن تيمية: «وهذا كثير من كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة. وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم عن علمنا أو قال لا يقتدى به. وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 52]، وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.»[4]

كما أورد ابن الجوزي أقوالاً كثيرة للشيوخ في هذا المعنى، بمن فيهم من اتهم بالشطح كأبي يزيد البسطامي الذي يقول: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود. ويقول: من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع»[5].

(4) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 210/11.

(5) تلبيس إبليس، أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق: السيد الجميلي، ط.1، 1405 هـ.1985م، دار الكتاب العربي. بيروت، ص:208.

والمعنى نفسه مستفاد من قول أبي الحسين النوري: «من رأيته يدعي مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم شرعي فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة باطنة لا يدل عليها ويشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه»[1].

لقد اختلف العلماء المسلمون حول التصوف منشأ ومصدرا وسلوكا، وساروا وجهات متعددة بصدده، بين قبول بإطلاق أو رفض بإطلاق، أو توسط بمقدار أو توقف في انتظار تبين معالم الحق والصواب، فهناك من تبنى التصوف ودافع عنه بقوة كالقشيري والمحاسبي وأبي نعيم الأصبهاني وغيرهم، وهناك من جنح إلى ذم التصوف ورفضه كابن الجوزي، وهناك من آثر التمييز في التصوف بين وجه شرعي وآخر بدعي كما هو الشأن بالنسبة لابن تيمية فالصوفية عنده: «مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ فيتوب أو لا يتوب»[2].

كما «انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإنّ أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلّمي في طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد»[3]. بل إنّ ابن تيمية يعتبر بعض علماء التصوف الكبار من العلماء المجمع على

(1) تلبيس إبليس، أبو الفرج بن الجوزي، ص:445.

(2) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 18/11.

(3) نفسه، 18/11.

علو مقامهم وسمو مكانتهم في الأمة، إذ يقول عن بعضهم: «شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين، كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري»[4].

ولذلك نجد فئة من العلماء المعتدلين الذين يدخلون في دائرة مَن قبل التصوف واعترف بضرورته السلوكية وسلم بمصادره الشرعية، تميز بين تصوف سني وآخر فلسفي، واستمر الاجتهاد في التمييز فيه بين الأصيل والدخيل، والشرعي والبدعي، والمتقدم والمتأخر. فابن تيمية ميز بين تصوف أهل السلوك والاجتهاد في طاعة الله عزوجل، وتصوف أهل الشطح والبدع، المدعين الانتساب إلى طريقهم، والمحققون من الصوفية براء منهم، «فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه في طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم»[5].

لقد كان علماء الغرب الإسلامي وعلى رأسهم المقاصدي الأندلسي أبو إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات مؤكدين على الوصف الإتباعي الشرعي للتصوف، وهذا ما قرره الشاطبي بقوله: «الوجه الرابع من النقل ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس، وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية لأنّ كثيراً من الجهال يعتقدون أنهم متساهلون في الإتباع وأنّ اختراع

(4) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 239/11.

(5) نفسه، 17/11.

العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أنْ يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم إتبّاع السنة واجتناب ما خالفها حتى زعم مذكرهم، وحافظ مأخذهم، وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم إنما اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع»[1]، ثم قال في موضع آخر: «وفي غرضي إنْ فسح الله في المدة، وأعانني بفضله، ويسر لي الأسباب، أنْ ألخص في طريقة القوم أنموذجاً يُستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم على عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقولوا عليهم ما لم يقولوا به»[2]. ويقول في موضع آخر من كتاب الاعتصام الذي صنفه لبيان الفرق بين السنة والبدعة وضوابط كل منهما: «وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو مما صح الدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم»[3].

وممن نافح عن التصوف وخصوصية منهجه العلامة ابن خلدون حيث قال في مقدمته: «... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[4]. وقال أيضا: «فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، اختصوا

(1) الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، 1406 هـ.1986م، 89/1.

(2) نفسه، 90/1.

(3) نفسه، 207/1.

(4) مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت .لبنان، ط.1، 1413هـ.1993م، ص: 381.

بمآخذ مدركةٍ لهم»[5]. كما صنف كتابه شفاء السائل وتهذيب المسائل، الذي بين فيه وجوه التكامل بين التصوف والفقه، وأنّ مدار التصوف على باطن الشريعة، والفقه مداره على ظاهر الشريعة،[6] فقال: «ثم إنّ الصحابة رضوان الله عليهم لما شرح الله صدورهم للإسلام، وقبلوا من الهداية ما كانوا فيه على بينة من ربهم، صرفوا الاهتمام إلى أعمال الباطن أكثر من أعمال الظاهر، فكانوا يراعون أنفاسهم، ويراقبون خطراتهم ويحذرون غوائل قلوبهم»[7] إلى أنْ قال: «فانفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة، وسموا بالصوفية»[8]، وقال في موضع آخر: «ولما تميزت هذه الطائفة بما تميزت به من النظر في أفعال القلوب والاهتمام بها وتقديمها على أفعال الجوارح في الشرعيات والعاديات، كما قال الجنيد: «إذا رأيت الصوفي يُعنى بظاهره، فاعلم أنّ باطنه خراب، فاختصوا بهذا الاسم لقباً لهم وعَلَماً عليهم»[9].

لقد نبه ابن تيمية في دراساته للتصوف إلى الأصل السني للتصوف ومنشأه، وذلك بتحديد مكان ظهوره لما له من آثار تأويلية تجلت فيمن أراد أن يربط بين المنشأ وشرعية الممارسة، حيث يقول: «فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض

(5) مقدمة ابن خلدون، ص:381.

(6) شفاء السائل لتهذيب المسائل، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، 1991م، ص: 180.

(7) نفسه، ص: 178.

(8) نفسه، ص: 180.

(9) نفسه، ص: 182.

أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فقه كوفي وعبادة بصرية»[1].

**نتيجة:**

فالتصوف يمثل الطريق التربوي الذي سار عليه جمع كبير من أهل العلم بالحديث والتفسير والعقيدة والفقه وسائر الفنون، وسلكوا مسلكه طالبين التحقق بمكارم الأخلاق التي هي منتهى التدين الكامل، ولذلك فالتدليل على سنية التصوف لا يحتاج إلى كبير عناء ويكفي تصفح كتب التراجم والطبقات لنجد كبار الأئمة جمعوا بين التحصيل العلمي والتهذيب السلوكي.

كما نجد إجماع أهل السلوك من مختلف المذاهب الفقهية لأهل السنة على تبني قيم التدرج والمحبة والمرحمة والدعوة بالحال والمقال الحكيم مما يستوجب ضرورة استلهام مناهجها في زمن فتنة التفسيق والتبديع والتكفير واستباحة الدماء وربطا للأمة بتقليدها الديني الوسطي والمعتدل الذي ينقض مقولات التطرف والإرهاب.

إن العناية بالمعمار الوجداني للأمة والذي عمل على صون أصوله وتجديد أساليب عمله طيلة قرون، أهل التربية من العارفين بمناهج الإصلاح التزكوي، يعتبر ضرورة ملحة تمكن الأجيال الجديدة من وصلها بذاكرتها الروحية والأخلاقية المفعمة بقيم الاقتداء والتأسي وربط حلقات التلقي السلوكي الموصولة السند برسول الله ﷺ، بحيث تكون

(1) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 11/6-7. والحسن هو الحسن البصري أحد الأئمة المعروفين عند السنة من طبقة التابعين.

سدا منيعا ضد أهل الأهواء والادعاء ممن أجهزوا على التقليد العقدي والفقهي والسلوكي الذي أجمعت عليه الأمة، ونصبوا أنفسهم ناطقين باسم الدين زورا وبهتانا.

إن العمل التزكوي من خلال عنايته بالأسانيد العملية والسلوكية الصحيحة، وقيامه على الجهاد الأكبر للنفوس، وربط التدين بالإخلاص لرب العالمين عبر آليتي المراقبة والمحاسبة، يقي من الجراءة على الدين وأهله من العلماء العاملين، ويبث قيم الوحدة وينبذ الفتنة، ويزرع المودة والتأليف بين القلوب، مما يجفف منابع التطرف والإرهاب الذي يعشش في بؤر الخلاف والشقاق، والتكفير والتضليل.

والنموذج الديني للمملكة المغربية راعى التكاملية في اختياراته الدينية بين العمل العقدي والفقهي والتزكوي، ورسخ الأبعاد السنية للسلوك الصوفي الجنيدي، وصلا للنص الشرعي بالأبعاد التزكوية والروحية التي تمنح منظورا متجددا لعلاقة الإنسان بربه ونفسه وغيره.

# المحتويات

مقدمة ..... 05

التزكية جهاد للنفس وعمل دائم ..... 07

1. مسألة الصفة وربط التصوف بصفات أهلها ..... 20

2. مسألة مبدأ التصوف ..... 22

أولا. النظر في مضمون التجربة الصوفية باعتبارها تحققا أخلاقيا ..... 17

ثانيا. التمييز بين ما يقتضيه الحال وما يقتضيه المقام من أحكام ..... 23

1. تسليم الحال ..... 23

2. الصحو واليقظة ..... 25

نتيجة ..... 30